

من دلائل الإيمان المبادرة إلى التوبة

أخى وسيدى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد .. فليعلم أخى وسيدى أن الحياة من حيث هى عبارة عن حركة نامية مستمرة سواء للسائلين ، فمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر تحوّل بها إلى ما يكسبه حياة أفضل فى الدنيا والآخرة إيماناً بالله الذى خلق هذه الحياة فى الدنيا ، ووعد الثواب عليها فى الدار الآخرة ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَبَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وعليه أقول لأخى : إن لله على عبده أمراً أمره به ، وقضاء يقضيه عليه ونعمة ينعم بها عليه ، فلا ينفك عن هذه الثلاثة أبداً . وللعلم أذكر لأخى أن بعض الصالحين قال كلاماً طيباً أعجبت به كل الإعجاب فالحمد لله . قال رضى الله عنه : «أراد بنا ، وأراد منا ، فما أراد بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالنّا نشتغل بما أراد بنا عمّا أراد منا » فعلى هذا الأساس ليس لنا أن نشتغل بما أراد بنا بل علينا أن نشتغل بما أراد منا ، والله هو الموفق للصواب . وللعلم أذكر لأخى أن القضاء نوعان : إما مصائب ، وإما معائب . والله على عبده عبودية فى هذه المراتب كلها فأحب الخلق إليه سبحانه من عرف عبوديته فى هذه المراتب كلها فوقها حقها ، فهذا أقرب الخلق إليه . وأبعدهم من جهل عبوديته فى هذه المراتب فعطلها علماً وعملاً . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فعبوديته فى الأمر امتثاله إخلاصاً واقتداء برسول الله ﷺ ، واجتناب النواهي خوفاً منه وإجلالاً ومحبة . فعلى هذا الأساس يجب حصر الاتجاه كله

والقصد جميعه نحو هذا الهدف السامى دون نظر إلى هواجس النفس وتقلباتها والتوجّس من المستقبل دون نظر إلى كيد الشيطان ووسوسته .

- أما العبودية فى قضاء المصائب فتكون بالصبر عليها ، ثم الرضا بها وهو أعلى درجة ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا ، وهذا إنما يتأتى من المؤمن إذا تمكّن حبّ الله من قلبه فحينئذ يعلم حسن اختيار الله له ويبرّه به ولطفه وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كرهها بحكم بشريته — وعبوديته فى قضاء المعايب المبادرة إلى التوبة منها والتنصّل مما فعله وأن يقف على باب ربه فى مقام الاعتذار إليه والانكسار خجلاً مما فعل ، عالماً بأنّه لا يرفعها عنه إلا هو ، ولا يقيه شرها سواه ، وأن المعصية إن استمرت أبعدته من القرب من ربه وطردته من بابه فيراها من الضرّ الذى لا يكشفه غيره ، فهو عائد برضاه من سخطه وبغفوه من عقابه وبه منه ، مستجير وملتجئ منه إليه ، وأنه لا سبيل إلى الإقلاع إلا بالتوفيق من الله وإعانتة ، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد ، فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتى بمِرْضاة ربه بدون إذنه ومشيتته وإعانتة ، فهو ملتجئ إليه متضرع ذليل مسكين ، يعلم يقيناً أنه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه ، وأن الخير كله لله وفى يده وبه ومنه ، فهو سبحانه ولى نعمته ومبتدئه بها من غير استحقاق ومُجْريها عليه مع تمتّ العبد نفسه بإعراضه عن ربه وغفلته ومعصيته . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علماً .

واعلم أخى وسيدى أن الله تبارك وتعالى قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء ، وولّى العبد الملامة والنقائص والعيوب « كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » أو كما قال . وأما عبودية النعم فمعرفة الاعتراف بها أولاً ثم العياد أن يقع فى قلبه نسبتها أو إضافتها إلى ما سوى الله عز وجل ، وإن كان سبباً من الأسباب فهو سبحانه مسبب ومقيم ، فالنعمه منه سبحانه بكل وجه واعتبار . قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ ﴾ . ومقتضى العبودية فى النعم الثناء على المنعم ومحبة عليها وشكره سبحانه بأن يستعملها فى طاعة خالقه ، قال رسول الله ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم ، وأحبوا لى حب الله لى » أو كما قال . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علماً .. ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه ،

ويستقل كثير شكره عليها ، ويعلم تماما أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها ، ولا وسيلة منه توسل بها إليها ، ولا استحقاق منه لها ، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد ، فلا تزيده النعم إلا انكسارا وذلا وتواضعا ومحبة للمنع ، وكلما جدد له نعمة أحدث له عبودية ومحبة وخضوعا وذلا ، وكلما أحدث له قبضا أحدث له رضا ، وكلما أحدث ذنبا أحدث له توبة وانكسارا واعتذارا ، فهذا هو الكيس ، والعاجز بمغزل عن هذا وبعد . قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . والتوبة هنا شاملة لجميع المعاني والصفات : امثال أوامره سبحانه توبة ، واجتناب نواهيه توبة ، وشكره على النعم توبة ، والصبر على المصائب والمعائب توبة ، والإقلاع عن الذنوب توبة ، والدعاء والضراعة توبة ، وما إلى ذلك .. والله الموفق .

فاعلم أخى وسيدى أن الله سبحانه وتعالى قد أمر العبد بأمر ، وضمن له ضمانا ، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والإخلاص والاجتهاد قام الله سبحانه له بما ضمنه من الرزق والكفاية ، والنصر وقضاء الحوائج ، فإنه سبحانه ضمن الرزق لعبده إذا عبده ، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به ، والكفاية لمن كان هو همّه ومراده ، والمغفرة لمن استغفره ، وقضاء الحوائج لمن صدقه في طلبها ووثق به وقوى رجاءه وطمعه في فضله وجوده ، فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيقه ، لا بضمانه فإنه الوفي الصادق ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما . فاعلم أخى وسيدى أن الله على كل شيء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه ، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها منه ، وأنصح للعبد من نفسه ، وأرحم به منه . فإن أبى العبد إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه دون حق ربّه خلّاه وما اختاره ، وولاه ما تولى ، فحضره الهمّ والغمّ ، والنكد والحزن والخوف ، والتعب وكسف البال ، وسوء الحال ؛ فلا قلب يصفو ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يحصل ، ولا راحة يفوز بها . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال بعض الصالحين : أهل الآخرة ثلاث : عابد ، وزاهد ، وصديق . فالعابد يعبد الله مع العلائق ، والزاهد يعبد على ترك العلائق ، والصديق يعبد

الله على الرضا والموافقة ، إن أراه أخذ الدنيا أخذها ، وإن أراه تركها تركها .
وأخيرا إلى اللقاء . استودعكم الله والسلام عليكم ورحمة الله .

* * * *